الوطنيون العرب ونشاطهم السياسى والصحفى فى ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

دكتور فرنز أنده - دكتور بيتر هاينه

بجامعة هامبورج - بجامعة مونستر

الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

في عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين ألف المستشرق الفرنسي هنري بيريس (HenriPéres) فهرسا تناول فيه الرحالة العرب الذين قاموا بزيارات الى أوربا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد طبع هذا الفهرس في القاهرة بعد الانتهاء من تأليفه ببضع سنوات · واذا ألقينا نظرة على هذا الفهرس فسوف نجد أن عدد العرب الذين كتبوا عن ألمانيا كان ضئيلا ، وخاصة في القرن التاسع عشر · ولهذه الظاهرة أسباب عديدة ، منها أن ألمانيا لم يكن لها كيان سياسي متكامل حتى عام ١٨٧١ ، بل وحتى مملكة بروسيا وهي التي تمثل جزءا كبيرا من الدولة الالمانية بعد اتحادها لم يكن لها آنذاك علاقات تذكر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الناحية الاقتصادية وكان ذلك هو السبب في عدم تشجيع الرحالة العرب الى التوجه الى ألمانيا اذا ما قورن ذلك برحلاتهم الى أسبانيا أو فرنسا أو انجلترا · ويلاحظ أن اهتمام الكتاب والسياسيين والصحفيين العرب بشئون ألمانيا قد بدأ يزداد بعد وحدة ألمانيا في عام ١٨٧١ وخاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ·

ونذكر على سبيل المثال الرحالة التونسي محمد بيرم التونسي (الخامس)

الذى تعرض فى كتابه « صفوة الاعتبار » للكتابة عن برلين ، وكذلك العالم المصرى محمد أمين فكرى الذى وصف أيضا مدينة برلين فى كتابه « ارشاد الألباء الى محاسن أوربا » وما زال هذا الكاتبان معروفين حتى الآن ٠

وعلى العكس من هذين الكاتبين فقد أهمل المؤخون ذكر حسن توفيق المصرى الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى معهد الاستشراق بجامعة برلين فى الفترة من ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ ٠ وله كتاب اسمه « رحلة حسن افندى توفيق او الرحلة البرلينيه » وكان فى ثلاثة عشر جزءا صغيرا نشرت تباعا فى مصر فى الفترة من عام ١٣٠٥ حتى عام ١٣٠٧ من الهجرة (يوافق ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ ميلادية) ، الا أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد فقدت على ما يبدو ، ولم نعثر منها الا على جزء واحد فى أرشيف عائلة بسمارك (Bismarck) بالقرب من مدينة هامبورج ٠ وقد تناول المؤلف فى هذا الجزء شيئا عن حياة بسمارك وعن تاريخ امارته ٠ وللمؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان « رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا» وقد طبع فى مطابع بولاق سنة ١٨٩١ وقد بحثنا عن هذا الكتاب ولكننا لم نعثر عليه حتى الآن ٠

أما عن رواد حركة استقلال مصر فقد اتخذوا باريس وسويسرا مقرا لهم ومنطلقا لكفاحهم ، وكانت لهم اتصالات بألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزار الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ألمانيا لهذا الغرض وفى عام ١٨٩٥ أشار مصطفى كامل وهو فى باريس على الخديوى أن يمده ببعض النقود للتأثير بها على بعض الصحف الألمانية لتقوم ، بالدعاية لمصر لمساعدتها فى نيل استقلالها من الاحتلال البريطانى ، ولكن الخديوى لم يستجب لهذا المطلب ٠

وقد بدا للوطنيين المصريين أنهم يستطيعون استغلال سياسة التقارب السياسى بين ألمانيا والدولة العثمانية للتخلص من الانجليز ، لأن تركيا هى الأخرى كانت تود التخلص من الانجليز على أمل أن تعود لها سيادتها على مصر ٠

أما فيما يتعلق بالسياسة الألمانية آنذاك فتتضح من تلك الواقعة : عندما قام القيصر غليوم الثانى عام ١٨٩٨ بزيارته للأستانه ودمشق والقدس أظهر تعاطفه م مع المسلمين فى كل العالم ، وكان فى أثناء خطاباته ومناقشاته يعمد الى ابراز تلويحات واشارات رمزية أثارت لدى بعض العرب والمسلمين أوهاما توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين وشعوبها التى كانت ترزخ تحت وطأة الاستعمار الانجليزى والفرنسى

والروسي . نقول هنا أوهاما لأن الواقع الذى لا يحتاج الى أى ايضاح أن الدولة الألمانية في ذلك الوقت كانت دولة عظمي وكانت هي الاخرى لها مستعمراتها وأهدافها الاستعمارية ، ولكن الذى ساعد على قبول السياسة الألمانية آنذاك أن الدول التي وقعت تحت الاحتلال الالماني كانت بعيدة عن الدول الاسلامية وكان عدو المسلمين الذين يقطنون تلك البلاد ضئيلا.

ولقد تحفظت دولة ألمانيا فترة طويلة تجاه تقديمها المساعدة للوطنيين المصريين في كفاحهم لتحرير مصر ، حرصا منها على علاقاتها الطيبه مع بريطانيا التى كانت معرضة للنقد الشديد من قبل فرنسا بسبب احتلالها لمصر .

ومن جانب آخر فكانت دولة ألمانيا حريصة على مصالح خليفتها تركيا فى حقها الشرعى في السيادة على مصر ، وكانت نرى أن أى تقارب معالحركة الداعية الى استقلال مصر كان سيؤدى الى اغضاب تركيا . الا أن هذا التحفظ من جانب ألمانيا أخذ بمرور الزمن يتغير رويدا رويدا وخاصة عندما تم التفاهم بين انجلترا وفرنسا عام ١٨٩٩ على عدم المساس بمصالح فرنسا فى المغرب العربى، وبالذات عام ١٩٠٤ عندما عقدت بينهما الاتفاقية المسماة « بالجلف القلبى » (Enteute Cordiale) والتى تقضى باعتراف فرنسا باحتلال انجلترا لمصر . فمن قبل ، كانت ألمانيا تساعد انجلترا ضد فرنسا فى احتلالها لمصر ، أما وقد اتفقت انجلترا مع فرنسا على الاحتلال فكان من الطبيعى أن أصبحت انجلترا فى غنى عن مساعدة ألمانيا لها ، وقد أدى ذلك الى أن تقلب ألمانيا لانجلترا ظهر المجن وتمد يد المساعدة للوطنيين المصريين وان كان هذا التقارب قد ظل يأخذ سمة الحذر حتى لا تثير ألمانيا بذلك غضب تركيا ومطامعها فى مصر .

وقد أدى نشوب الحرب العالمية الأولى أن تقوم السياسة الألمانية بدور ايجابى فى مساندة الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى وفى الهند ، وكانت ألمانيا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ما يلى :

أن الحكومة الألمانية والقادة العسكريين بها اذا استطاعوا تحريض الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى والهند على الثورة فسوف تضطر كل من انجلترا وفرنسا على سحب أجزاء كبيرة من قواتها العسكرية وأساطيلها المرابطة في أوربا ، وارسالها الى مناطق الاضطرابات لاخماد الثورات بها فيسهل ، بذلك التحالف « ألمانيا والنمسا وتركيا » تحقيق النصر على انجلترا وفرنسا فى أوربا .

وفى الخريف عام ١٩١٤ كتب السياسي والمستشرق الألمانى البارون ماكس فون اوبنهايم (Max von Oppenheim) الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية قسم الشئون الشرقية ، كتب تقريرا بعنوان « اثارة المناطق الاسلامية ضد أعدائنا » . . . ومما جعل فكرة اثارة الشعوب هذه أقرب الى القبول ان تركيا كانت تطالب بان يكون سلطانها خليفة على العالم الاسلامي كله . وقد تطلب هذا الهدف الاستراتيجي جمع معلومات دقيقة عن هـذه الدول الاسلامية وبناء عليها توضع خطة ذكية للدعـــاية التى تؤدى الى التحريض على الثورة ، ورأت الحكومة الالمانية لتحقيق هذا الهدف أن تجلب الى ألمانيا بعض الوطنيين العرب ، وتجلب بالاضافة الى ذلك مكافحين من أجل الحرية من ايران والهند وغيرها .

وعلى أى فان العربى الذى استطاع أن يلفت أنظار الرأى العـــام اليه عند زيارته لألمانيا لم يكن من المغرب ، ولم يكن من مصر بل كان من لبنان ، ذلك العربى هو الأمير شكيب أرسلان الذى ولد عام ١٨٦٩ وتوفى عام ١٩٤٦ :

سافر الأمير شكيب أرسلان فى صيف عام ١٩١٧ الى ألمانيا فى زيارة رسمية ، ثم سافر اليها مرة ثانية عام ١٩١٨ بصفته نائبا فى مجلس الأمة العثمانى مبعوثا من الحكومة التركية . وكان عليه فى الرحلة الاولى أن يدرس الحالة السياسية والاجتماعية فى ألمانيا وذلك بتكليف من وزير الحرب التركى أنور باشا ، أما الرحلة الثانية فكانت تهدف الى تقريب وجهـــات النظر بين الحكومتين التركية والالمانية بشأن سياسة تركيا فى القوقاز . ومما يلفت النظر أن وزير الحرب التركى أنور باشـــا قد اختار لمهمـة الوساطة بين الحكومتين التركية والألمانية رجلا عربى الأصل ، مفضـــلا اياه على أن يكلف أحد الأتراك للقيام بهذه المهمة .

ولقد استقبل شكيب أرسلان فى ألمانيا استقبالا حافلا وعومل معاملة خاصة ، وسبب ذلك أن الحكومة الالمانية قد رأت على ما يبدو فى شكيب أرسلان عنصرا عربيا هاما لمساندة وتقوية السياسة التركية تجاه الدول والشعوب العربية . ولقد كانت ألمانيا تود توطيد علاقتها بخليفتها تركيـا ورأت ما يتمتع به الأمير من صلة وثيقة بالحكومة التركية فكان هذا الاستقبال والحفاوة البالغة ، هذا بالاضافة الى الصداقة المتينة التى كانت تربط شكيب بأنور باشا ، فعومل لذلك أحسن المعاملة حتى ينقل عن ألمانيا صــــورة حسنة لأنور باشا عن لقائه به مرة ثانية .

أما البارون اوبنهايم الذى كان صديقا للأمير شكيب أرسلان مـدة عشرين عاما فقد استغل هو الآخر نفوذه بالتمهيد لاستقبال شـــكيب أرسلان استقبالا جسيما أينما حل فى ألمانيا . سواء كان ذلك فى برلين أو فى المدن الأخرى أو فى مناطق الاحتلال الالمانى كبلجيكا وفرنسا . وقـــد نقلت الصـحافة الألمـانية أنباء تنقلاته فى عام ١٩١٧ كما نشرت خطبه ومقالاته . ويحدثنا شكيب أرسلان فى مذكراته التى طبعت أخيرا فى بيروت سنة ١٩٦٩ تحت عنوان « سيرة ذاتية » يحدثنا فيها عن انطباعاته وهو فى ألمانيا . ولكن شكيب للأسف لم يشر فى مذكراته الا الى عدد ضئيـل جدا من السياسيين الالمان والموظفين والعلماء الذين اجتمع بهم خلال رحلاته ومما تجدر ملاحظته أن بين الأعداد الضئيلة التى كتب عنها شكيب أرسلان فى مذكراته يوجد اسم رئيس بلدية كولونيا آنذاك . ذلك الرجل الذى عين بعد ثلاثين عاما من لقائه به مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية . الا وهو الدكتور كونراد أديناور (Konrad Adenauer) .

وكما سبق أن ذكرنا فقد جاء شكيب الى ألمانيا بصفته نائبا فى مجلس الأمة التركى ، ورغم ذلك فيمكننا أن نعد شكيب أرسلان من الوطنيين العرب الذين كانوا يعملون من أجل القضية العربية ، والسبب فى ذلك ما يلى :

أن شكيب قد أصبح فيما بعد من المكافحين البارزين من أجـــل الوحدة والاستقلال العربى ، وكفاحه من أجل المغرب العربى معروف للجميع ومما تجدر الاشارة اليه أن شكيب فى محادثاته الخاصة والعامةوفى مقالاته التى نشرتها له الصحف الالمانية لم يخف موقفه على أنه وطنى عربى . صحيح أن شكيب قد دعا آنذاك العرب الذين كانوا يعيشون داخل نفـوذ الدولة العثمانية وخارجه دعاهم جميعا للدفاع عن هذه الدولة العثمانية ، وصحيح أيضا أنه وجه نقدا شديدا الى أنصار القومية العربية فى الحجاز الا أنه ليس من العدل أن يوصف موقف شكيب هذا على أنه خيانة للقضيـة العربية . فلشكيب أرسلان الفضل فى لفت أنظار الرأى العام فى ألمانيـا لأول مرة على مسألة القومية العربيـة من جانب ، وعلى الأخطار التى تكمن وراء قيام الشوفنية التركية (أى التغالى فى العنصرية التركية) من جانب آخر ، وقد أتاحت له اقامته فى ألمانيا أن يبرز هذه المسألة بوضوح ، ولم

تكن الفرصة مهيأة له من قبل للأعراب عن وجهة النظر هذه وهو في اسطنبول • ونستطيع ان نلمس هذا الموقف واضحا من المقال الذى وجد قبولا كبيرا فى ألمانيا والذى نشر عام ١٩١٧ فى مجلة « الشرق الجديد » (Der Neus Orient) التى كانت تهتم بوجه خاص بتطورات الموقف فى كل من اسيا وشمال افريقيا ، تلك المجلة التى كان يشرف عليها مكتب خاص تابع لوزارة الخارجية ، الألمانية وكان هذا المقال بعنوان « ماذا تنتظره سوريا من الحرب » • وقد اشار شكيب فى هذا المقال الى ان غالبية الشعب السورى (واعنى به منطقة الشام التى كانت تضم سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) يتمنون أن تظل هذه المنطقة تحت النفـــوذ العثمانى ، ولكن ليس تحت الشروط الحالية . بل تحت شروط تكفـل احياء العروبة واللغة العربية • ولقد تبنى وجهة النظر هذه أيضا المتحمسون جدا لبقاء التحالف العربى مع تركيا ،والفرق بينهموبين الداعين الى الانفصال نهائيا عن تركيا أن الأخيرين كانوا يعملون على بذر بذور الكراهية والحقـد ضد الأتراك • وكانت الكلمات التى يلقيها اتباع الشوفانية التورانيـة التركية (أى أتباع العقيدة التركية النورانية) فى اسطنبول والتى كانت تشيد بأمجاد جنكيز خان وتيمور لانك كانت تجسم فى الدول العربيـة صورة الاستعمار البغيض ، وقد مد ذلك لانجلترا وفرنسا الطريق لكسب الكثير من الأصدقاء فى الدول العربية •

وفى المجلة السالفة الذكر أوضح شكيب أرسلان فى فبراير ١٩١٨ أنه رغم تحمسه لبقاء التحالف التركى العربى الا انه مع ذلك ليس عميلا للأتراك ولا للألمان وليس تابعا لأى جهة ، ويبدو أيضا أن شكيب أرسلان قد أطلع الساسة الألمان على الاجراءات الطاغية التى يمارسها جمال باشا الحاكم التركى فى سوريا • وكان ينبغى من وراء ذلك أن يستعمل الألمان نفوذهم لدى الأتراك لتخفيف وطأة هذه الاجراءات •

أما الوطنيون المصريون والمغاربة الذين أقامـــوا فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، طالت مدة اقامتهم فيها أم قصرت ، فكانوا يساندون وجهة النظر الألمانية التركية بالتحريض على الثورة فى المحميات والمستعمرات الانجليزية والفرنسية •

ولقد كانت ألمانيا قبل الحـــرب العالمية الأولى هدفا لزيارة الوطنيين العرب •

وعلى سبيل المثال فقد عاش الدكتور لبيب محرم ، رفيق مصطفى كامـــل فى الكفاح ، فى برلين لاجئا سياسيا وتوفى بهـــا فى سبتمبر سنة ١٩١٣ •

ولكن لا يفوتنا ان نذكر أن معظم الوطنيين المصريين الذين طلبوا اللجوء السياسي قد اتخذوا سويسرا مقاما لهم ومن هنـــاك شنوا ، أثناء الحرب ، حملاتهم في الصحافه من اجل استقلال مصر · وقد فضلوا الاقامة في سويسرا لعاملين هامين : الاول موقف سويسرا المحايد · والعامــل الثانى هو وجود صحافه سويسرية حرة باللغتين الالمانية والفرنسية ، وكانت هذه الصحافة توزع على نطاق واسع فى كل أنحاء أوربا · بل ووجد بعض هؤلاء الوطنيين مساعدة خاصة من فؤاد سليم الحجازى المصرى الذى كان صديقا لمصطفى كامل قبل وفاته والذى كان يعمل سفيرا لتركيا في برن ، وبهذه المساعدات تمكن المكافح التونسى محمد باش حانبة من سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب سنة ١٩١٨ وهو فى جنيف من اصدار مجلة المغرب (Revue du Maghreb) باللغة الفرنسية · ومن يود أن يتتبع النشاط الصحفى والسياسى للوطنيين العرب وخاصة المصريين منهم فسوف يلمس ذلك بوضـوح من سيل الرسائل المتبادل بـــين الوطنيين العرب وزملائهم فى كل من سويسرا وألمانيا وكذلك فى الزيارات المتبادلة والتنقلات المستمرة بين البلدين · ولقد ظهر على سبيل المثال فى مجلة الشرق الجديد Der Veue orieut سالفة الذكر والخاضـــعة لاشراف وزارة الخارجية الألمانية عدد هائل من رسائل القراء ومن المقالات لهؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يعيشون فى سويسرا ·

وكثيرا ما كان يصعب معرفة الشخصيات الحقيقية التى كانت تحرر هذه الرسائل والمقالات ، لأنها كثيرا ما كانت تحمل أسماء مستعارة وأحيانا ما كانت توقع بأسماء غير حقيقية كابن طولون أو المغربى وهكذا ·

وجاء فى بعض هذه الرسائل كثير من الهجوم على الشاعر المصرى على الغاياتى الذى كان قد كتب قصيدة بعنوان « وطنيتى » ونفى على أثرها من مصر حيث لجـــأ الى جنيف وأقام بها ، وكانت هذه الرسائل تتهمه بأنه قد أصبح وهو فى سويسرا عميلا لدول التحالف انجلترا وفرنسا · وفى هذه الرســائل ما يفيد بالمتاعب الكثيرة التى كانت تخلقها الســـفارة البريطانية فى سويسرا للوطنيين المصريين المقيمين بها بسبب عدم تجديد جوازات سفرهم ومنع وصول الأموال اليهم من ذويهم فى مصر · ويجدر بهذه المناسبة الاشارة الى كتاب حديث ظهر عام ١٩٧٠ لكاتب سويسرى اسمه مارك تريفتسجر Marc trfz ger يتحدث فيه عن الحركات الوطنية المصرية فى مرآة الرأى العام السويسرى ·

واذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين المصريين فعلينا مراعاة ما يلى :

في نوفمبر سنة ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب متحالفة في ذلك مع ألمانيا ، وردا على هذا الاجراء أعلن الانجليز خلع الخديوى عباس الثانى الذى كان يقوم في هذا الوقت بزيارة للأستانة ونصبوا بدلا منه عمه حسين كامل سلطانا على مصر ، وأعلنوا بالاضافة الى ذلك فرض الحماية على مصر ٠

وقد أدى هذا الاجراء من جانب انجلترا الى حدوث تقارب جديد بين الحزب الوطنى وبين الخديوى عباس الثانى بعد أن كانت العلاقه بين الخديوى وبين الحزب الوطني قد ساءت عقب موت الزعيم مصطفى كامل ٠

أما عباس الثانى فقد ترك الأستانة واتجه شطر فينا ومن هنا سافر الى برلين للزيارة ٠

ورغم هذا التقارب الجديد فلم يكن هناك تفاهم تام بين الخديوى والوطنيين المصريين وخاصة من الجناح المتطرف الذى كان يتزعمه الدكتور منصور رفعت ٠ ولكن السياسة الجديدة كانت تقضى بأن يعلن الوطنيون العرب من حيث الظاهر فقط اتفاقهم مع الخديوى ، وأن مصر ستظل جزءا من الخلافة العثمانية بعد انسحاب الانجليز منها ٠

وقد تركز النشاط السياسى بالطبيعة على برلين ، فأنشأت احدى اللجان الوطنية لحزب مصر الفتاة ناديا في برلين ، ويسرت الحكومة الألمانية بالتالى لهؤلاء الوطنيين سبيل الحصول على حجرات كبيرة وصالات في بعض الفنادق لاقامة حفلاتهم . كما وضع النادى العثمانى أيضا تحت تصرفهم ٠ وفيما يلى عرض سريع لأبرز هؤلاء الأعلام :

١ ــ محمد فريد ، وقد خلف مصطفى كامل بعد وفاته في قيادته للحزب الوطنى ٠

كان محمد فريد يقيم في أوربا منذ عام ١٩١٢ ، وكانت معظم اقامته في سويسرا ، وكثيرا ما زار ألمانيا وأقام فيها لفترات طويلة ، وكان وهو في برلين يلقى خطبه ويصدر تصريحاته المناوئة للحكومة الانجليزية ٠

٢ ــ منصور رفعت ، كان شعلة من النشاط ، وأسس في سويسرا ناديا للوطنيين المصريين ، وكان في بعض مواقفه السياسية أكثر تطرفا من محمد فريد ٠ طرد في نوفمبر ١٩١٤ من سويسرا وأرسل الى ألمانيا ٠ وكتب وهو في ألمانيا مقالات عديدة ضد الانجليز ، وكان يسانده في ذلك مكتب خاص للدعاية الألمانية ٠ ويؤكد بعض الألمان الذين كانوا يعملون مع منصور رفعت أنه كان رجلا صعب المراس ، لم يقتصر شجاره مع زملائه

الألمـــان بل كان فى صراع وشجار دائم مـــع رفاقه الوطنيين المصريين ٠ وأحيانا ما كان يدعى بأنه يحمل الجنسية الأمريكية ٠

٣ ـ محمد فهمى : كان لا يقل نشاطا وشهرة عن زملائه ابتداء من عام ١٩٠٠ وأسس هناك اللجنة الدائمة للشباب المصرى فى أوربا ٠ وفى يناير ١٩١٥ فاوض فى برلين مع ممثلين من الحكومة الألمانية لتحديد موقفهم وموقف تركيا تجاه استقلال مصر ، الا أن الرد الألمانى لم يكن كافيا لتحقيق أهدافه وقد أدى ذلك الى فتور علاقته بالساسة الألمان ٠

٤ ـ عبد الملك حمزة ٠ كان يختلف فى موقفه كثيرا عن محمد فهمى حيث قرر العمل مـــع مكاتب الدعاية الألمانية ، ومثله فى ذلك الشـــيخ عبد العزيز جاويش التالى ذكره بعد هذا ٠٠ أصدر عبد الملك حمزة مجلة « العالم الاسلامى » Die Islamisch Weit باللغة الالمانية ، وقد هيأ له مركز رئيس تحرير هذه المجلة الفرصة للاتصال بكبار الساسة الألمان ، ومن ذلك أنه استطاع أن يعرض وجهة نظر الحزب الوطنى آنذاك فى أن يكون الاشراف على قناة السويس اشرافا دوليا ، على جمعية من السياسيين الألمان والأساتذة وغيرهم من الشخصيات البارزة فى المجتمع كان يطلق عليها اسم « جمعية الخميس » ٠

٥ ـ الشيخ عبد العزيز جاويش : حاز على شهرة أوسع من عبد الملك حمزة ، وعرف جدا فى ألمانيا ٠ كان وهو فى مصر محررا لمجلة اللواء ٠

غادر مصر عام ١٩١٢ واتجـــه الى اسطنبول وهناك التحق بجمعية « الاتحـــاد والترقى » ، وقيل انه كان وهو فى مصر على علاقة بالوكالة الألمانية ٠ ثم غادر تركيا عـــام ١٩١٦ متجها الى ألمانيا ، فقدم للصحافة الألمانية على أنه مدير جامعة المدينة المنورة التى أسسها الأتراك عام ١٩١٤ ٠ وفى الحقيقة ان الشيخ جاويش لم يسافر الى المدينة المنورة الا لوضع حجر أساس هذه الجامعة مع شكيب أرسلان ، وعلاوة على ذلك قدم أيضا على أنه عميد لكلية صلاح الدين فى القدس ٠ والدافع الحقيقى الذى يكمن وراء رحلته الى ألمانيا لم يكن كما أعلن هو الاطلاع على نظام الجامعـــات الألمانية وانما كان للاعداد لاصدار مجلة العالم الاسلامى باللغـــة الألمانية ولالقاء محاضرات فى ألمانيا ولتقديم النصائح الى الخبراء الألمـــان فيما يختص بالدعاية التى تهم مصالح العالم الاسلامى ٠

وقد ظهرت مجلة العالم الاسلامى باللغة العربية فى اسطنبول ابتداء من ٦ مايو سنة ١٩١٦ ، وظهر العدد الأول منها فى برلين باللغة الألمانية

فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، وكانت هذه المجلة تضم عددا كبيرا من المقالات للشيخ جاويش ولكبار المسلمين من العرب والأتراك والايرانيين والهنود وغيرهم ، كما كانت تضم أيضا مقالات للعلماء الألمان والصحفيين والسياسيين وهكذا ٠ ولم يكتف التسيخ جاويش بالكتابة فى هذه المجلة بل كان يكتب أيضا فى جرائد ومجلات ألمانية أخرى ٠ وقد ظهر له على سبيل المثال مقال عن اللغة العربية وتاريخها عام ١٩١٦ فى « المجلة البروسية » (Preussische Jahrbuecher) التى كانت تصدره مرة واحدة كل عام وهى مجلة تاريخية ثقافية هامة جدا ٠

وبجانب الوطنيين المصريين نجد أيضا فى ألمانيا مكافحين آخرين كانوا يعملون من أجل تحرير المغرب العربى ٠ ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا ضمن هؤلاء المكافحين رغم أنه ولد فى الاسكندرية حيث كان لأبوين تونسيين ٠ وقد استطاع هؤلاء الوطنيون أن يحصلوا على وعود من الدبلوماسيين الألمان والنمساويين أثناء محادثاتهم معهم تقضى بالعمل لانشاء جمهورية مستقلة فى شمال افريقيا ٠ ومن أشهر الوطنيين المغاربة الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى والذين ما زالت شهرته باقية حتى الآن هو الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى رحل الى مصر بعد الحرب العالمية الأولى وعاش بها ، وقد عين فى عام ١٩٥٢ شيخا للأزهر :

كان الشيخ الخضر حسين يعيش فى دمشق منذ عام ١٩١٢ ثم رحل منها الى اسطنبول ، ومن هناك رحل الى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ليكتب مقالات فى الصحف للتأثير بها على الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الألمان والذين كانوا قبل ذلك يعملون فى الجيوش الانجليزية الفرنسية والروسية ٠ ولكن الشيخ الخضر حسين لم يحظ لدى الرأى العام الألمانى بتلك الشهرة التى كان يتمتع بها الشيخ صالح الشريف التونسى ٠

كان الشيخ صالح الشريف التونسى يعمل أستاذا فى جامعة الزيتونة، ثم انتقل قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى الى اسطنبول حيث عاش بها ، وقيل أنه كان يقوم بتدريس اللغة العربية لأنور باشا وزير الحرب ، ثم توجه الى ألمانيا فى نوفمبر أو ديسمبر سنة ١٩١٤ ٠

أما عن نشاطه فى ألمانيا فيحدثنا عن ذلك الدبلوماسى الألمانى البارون شابنجر Schabinger فى مذكراته التى لم تطبع حتى الآن ٠ كان شابنجر يجيد اللغة العربية ، وعمل مترجما فى القنصلية الألمانية فى

طنجة لبضع سنوات ، وترجم أثناء الحرب العالمية الأولى الى اللغة الألمانية كتيبا للشيخ صالح الشريف عن الجهاد فى الاسلام وظهر هذا الكتاب فى برلين عام ١٩١٥ ٠

رافق شابنجر الشيخ صالح الشريف الى الجبهة الغربية حيث وجه الشيخ صالح عن طريق مكبر الصوت نداء الى الجنود والضباط المسلمين وحثهم فيه على الهروب واللجوء الى الألمان ٠ وفى برلين القى الشيخ صالح الشريف مرة محاضرة أمام جمهور منتخب من الألمان ، ومرة أخرى أمام دبلوماسيين أجانب ٠ ويبدو أن المحادثات التى أجراها الشيخ صالح مع الصحفيين والساسة الألمان عن أهداف ألمانيا تجاه المغرب العربى لم تجد القبول الذى كان يبغيه فأحس بشىء من خيبة الأمل ، كما لم يحقق اللقاء مع القيصر الألمانى أى نجاح لأن السفير التركى كان حاضرا أثناء هذا اللقاء وقد عمد القيصر على التحدث باللغة الألمانية مع السفير التركى ولم يعر الآخرين اهتماما وكان من بينهم الشيخ صالح الشريف والأمير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائرى ٠

كان الشيخ صالح الشريف قد جاء الى ألمانيا وكله أمل أن تحقق مساعيه بالنجاح ٠ وصرح أمام المستشرق الألمانى مارتين هارتمان (Martin Hartmann) بضرورة العمل على انشاء جامعة اسلامية فى ألمانيا يقوم بالتدريس فيها أساتذة مسلمون ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق ٠ ومع ذلك فقد كان سعيدا راضيا بحضوره لافتتاح مسجد أقيم للأسرى المسلمين الذين جمعوا فى مكان أطلق عليه معسكر الهلال وسوف يأتى الحديث عن هذا المعسكر ٠

أما عن شعوره بخيبة الأمل فى جهوده التى بذلها مع الألمان تجاه استقلال المغرب فقد ظل كما هو لم يتغير ٠ وفى أوائل عام ١٩١٧ أرسل رسالة الى القيصر يطلب منه فيها أن يقوم بتصفية كل مستعمراته الألمانية حتى يستطيع أن يقدم الى العالم الدليل على حسن نواياه ، ويبدو أن القيصر لم يرد على هذه الرسالة ٠

وكما نرى فقد تبين للشيخ صالح وكذلك لزملائه الوطنيين الذين كانوا ينشدون مساندة ألمانيا آنذاك تبين لهم أن التعاون مع ألمانيا له حدود لا يمكن تخطيها ٠ وقد اتضحت هذه الحقيقة أيضا للعالم المغربى محمد العتابى فلم يستطع أثناء مناقشاته مع الألمان أن يخفى تخوفه من ألمانيا قد تحل محل فرنسا فى احتلال المغرب ٠

ومما يلفت النظر أنه كتب مقالا عن القضية المغربية تجنب فيه أى اشادة أو مدح لألمانيا ولسياستها ، وقد نشر هذا المقال فى يناير سنة ١٩١٨ ، بل وزيادة على ذلك فقد ناشد العتابى فى هذا المقال الشعوب الأوربية جميعها على العمل على مساندة المغرب فى نضالها من أجل الحرية والاستقلال ٠

وهناك من المغاربة من كانوا أقل شهرة ولكنهم على عكس العتابى قدموا قدرا أكبر من التعاون مع الالمان ، وأبرز هذه الشخصيات رجل جزائرى الجنسية كان يعمل فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان ، ثم فر منه هاربا الى صفوف الجيش الألمانى ووضع نفسه تحت خدمة الدعاية الألمانية ٠ جاء هذا الجزائرى الى ألمانيا يحمل اسم الحاج عبد الله وكان قد أصدر وهو فى سويسرا كتيبا باللغة الفرنسية بعنوان « الاسلام فى الجيش الفرنساوى » L'Islam dans l'Armée Française وقد ظهر هذا الكتيب عام ١٩١٧ يحمل اسما للمؤلف هو « رياح بوكسبويا » ٠

وممن قام بزيارة ألمانيا أيضا الأمير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائرى ولكن نشاطه فى ألمانيا لا يعد شيئا يذكر اذ قورن بالمجهود الصحفى الذى قام به الحاج عبد الله أى ان هذه الزيارة لا أهمية لها ولا تخرج عن كونها شيئا رمزيا ٠

وكانت ألمانيا تعمد دائما على اطلاع الضيوف العرب أمثال الأمير على بن عبد القادر الجزائرى وغيره على معسكر الهلال للأسرى المسلمين الذى انشىء فى « ونسدورف » Wunsdorf على مقربة من برلين ٠ وقد جلب الى هذا المعسكر الأسرى المسلمون الذين كانوا يعملون فى صفوف الأعداء والذين كانوا قد وزعوا فى بادىء الأمر على معسكرات مختلفة فى شتى أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الأسرى الانجليز والفرنسيين والروس ، ثم نقلوا الى المعسكر السالف الذكر والذى أطلق عليه معسكر الهلال ٠ وكان يوجد فى هذا المعسكر مسلمون من العرب والتتار ومسلمو بعض الدول الأخرى ٠

وكان يقوم بالرقابة فى هذه المعسكرات بعض الضباط الألمان الذين يعرفون اللغات الشرقية ومنهم من كان يتفاهم مع الأسرى العرب باللغة العربية ٠

وكان الهدف من وراء جمع المسلمين فى معسكر واحد بهذا الشكل هو تيسير مهمة نشر الدعاية بينهم لقبول الأهداف الألمانية التركية ٠

وفي سببين ذلك أنشئت مجلة أطلق عليها « الجهاد » وقد ظهرت هذه المجلة لأول مرة فى برلين في شهر مارس ١٩١٥ وطلع من هذه المجلة ١٥ ألف نسخة ، وقد صدرت بلغات شرقية مختلفة ومنها اللغة العربية ، ولم يكن المقصود باصدار هذه المجلة توزيعها على الجبهة أو فى الدول الأجنبية بل كان توزيعها قاصرا على الأسرى المسلمين فقط ٠

وممن كتب فى هذه المجلة الحاج عبد الله الجزائرى والشيخ محمد الخضر حسين ٠ وكانت ألمانيا تنتهز أيضا فرصة حلول الأعياد الدينية لاقامة احتفالات تلقى فيها الخطب للتأثر بها على الجنود ، ومن بين الذى ألقوا كلمات فى هذه الاحتفالات محمد فريد المصرى وضباط وسياسيون أتراك وآخرون ٠ وكانت هذه الخطب تهدف الى التأثير على الأسرى المسلمون للقتال فى جانب تركيا ٠

وقبل اشتراك تركيا فى الحرب (أى قبل نوفمبر سنة ١٩١٤) جلب شابنجر بعض الأسرى من معسكر بالقرب من يادربورن Paderborn وذهب بهم الى اسطنبول لكى يدعوا الناس هناك الى الجهاد ٠ وهؤلاء الأسرى كانوا عبارة عن خمسة من المراكشيين واثنين من الجزائريين وسبعة من التونسيين ٠ وقد أرسل هؤلاء الأسرى تحت ستار أنهم سيرك متحرك وذلك للتغطية على جواسيس العدو ٠

وفى شتاء عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ وضعت تركيا خطة تقضى بأن يجمع أسرى المغرب العربى الذين كانوا فى المعسكرات الألمانية والتركية والذين كانوا على استعداد للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك ثم يرسلوا فى غواصات الى ليبيا بقيادة المجاهد التونسى على باش حانبة للاشتراك هناك فى الحرب الدائرة ضد الاحتلال الايطالى الا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل بسبب التدهور السريع لحالة تركيا العسكرية وبسبب مرض على باش حانبة الذى مات على أثره قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ٠ وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن هناك غواصات كانت قد أرسلت الى سواحل ليبيا لمساندة الحركة السنوسية وأخرى الى سواحل المغرب الأقصى لمساندة الحركة التحررية بها ، وهذا موضوع يحتاج الى محاضرة مستقلة لعلاجه ٠

أما عن استعداد الأسرى المسلمين للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك فلم يلق قبولا ملحوظا ولم يظهر كثير منهم استعدادهم للاشتراك فى القتال بدليل أن بعضهم قد هرب الى الجيش الانجليزى عند ما أتيحت لهم الفرصة وهم فى العراق ٠ ويمكننا القول أن مهمة معسكر الهلال كان دعاية للسياسة الألمانية التركية أكثر منه عملا عسكريا ٠

فى صيف عام ١٩١٧ أقيم فى استوكهولم بالسويد المؤتمر الاشتراكى الدولى ، كما أقيم هناك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من نفس العام مؤتمر الشعوب الاسلامية ، وقد اشـــترك فى هذين المؤتمرين بعض الوطنيين العرب الذين كانوا يقيمون فى ألمانيا • أما ما يتعلق بالمؤتمر الاشتراكى فمن الواضح أن غالبية الوطنيين العرب الذين زاروه لم يكونوا اشتراكيين وهذا ما أعرب عنه محمـــد فريد المصرى رسميا للصـــحافة السويسرية بعد رجوعه من استوكهولم باسمه وباسم الحزب الوطنى • ومن المؤكد ان محمد فريد وغيره من أعضاء الوفود العربية قد انتهزوا فرصة عقد المؤتمر لعرض القضية العربية على أعضاء المؤتمر الاشتراكى العالمى •

أما عن مؤتمر الشعوب الاسلامية فقد ساهمت فيـــه مصر بنصيب كبير ، وكان يمثل المغرب فى المؤتمر الشيخ اسماعيل الصفائحى القاضى الحنفى الســـابق بتونس ، ومعـــه الشيخ صـــالح الشريف ســـالف الذكر ، وكان يمثل ليبيا يوسف شتوان النائب السابق لطرابلس الغرب فى مجلس الأمة العثمانى ومعه الشيخ محمد بن صالح الشريف البنغازى وكان يمثل المغرب الأقصى الشيخ محمد العتابى المشار اليه سابقا •

وبعض الوطنيين العرب الذين ورد ذكرهم فى هذه المحاضرة قـــد عاصروا نهاية الحرب وهم فى ألمانيا ، وفى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٨ اجتمع فى برلين ممثلون عن الحـــزب الوطنى المصرى وأصـــدروا قرارات كثيرة يؤكدون فيها انهم سوف يواصلون النضال من أجل تحرير بلادهم وجاء فى هذه القرارات الاعراب عن شكرهم للصحافة الألمانية لمساندتهم للقضية المصرية •

أما فيما يتعلق بالتطورات الأخرى التى حدثت فى مصر فمن الواضح أنه قد برزت شخصيات أخـــرى على رأس الثورة التى اندلعت بعد ذلك بعام قادت الحزب الوطنى ، ولم يكن لمحمد فريد فى هذه التطورات الأخيرة أى تأثير لأنه كان بعيدا عن مصر ووافته منيته وهـــو فى برلين فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ •

وبعض هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب من رحلوا منها الى تركيا وعاصروا نهاية الحرب هناك وعند ما رأوا أساطيل الحلفاء تمر فى مضيق البوسفور هربوا منهـــا الى ألمانيا وفيهم الشيخ جاويش وصالح الشريف التونسى والشيخ محمد الخضر حسين ، وذلك عن طريق روسيا فألمانيا ومنها الى سويسرا ، وانضم اليهم فى الطريق الأمير شكيب

أرسلان • ورغم اقامة شكيب أرسلان في سويسرا بعد ذلك فقد ظل على علاقة وطيدة مع ألمانيا ، ويعتبر شكيب أرسلان من أوائل الذين اهتموا بالادب الألماني وبشعر جوته (Goethe)

وقد جعلت هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى هـــؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يتعاونون مـــع ألمانيا وينشدون مساعدتها في حـــل قضاياهم قد جعلتهم أمام التاريخ يوصمون أيضا بالهزيمة ، ولعل فى ذلك بعض الصحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الأيام قد أثبتت صـــحة تنبؤات شكيب أرسلان ومحمد فريد وغيرهما وما كانوا يصرحون به من أهداف الحلفاء وخططتهم والتى وضحت بعد نهاية الحرب •

ولقد تعرض هؤلاء الوطنيون للهجوم حتى من أتباع حركة التحرير العربية فى الحجاز الذين كانوا يصفون هؤلاء الوطنيين بأنهم حلفاء للأتراك اللادينيين الذين يحتقرون العرب والاسلام والذين كان لا ينتظر منهم اطلاقا أن يمنحوا مصر حريتها لو أنهم كانوا قد انتصروا فى الحرب ، مع أن أنصـــار حركة التحرير العربية فى الحجـــاز قد تحققوا فيما بعد من عدم تمسك الحلفاء بوعودهم التى أخذوها على أنفسم أثناء الحرب • وربما كانوا على حق فى اتهامهم هذا الا انهم يغفلون تماما الظروف الصعبة والحـــالة القاسية التى كان يمر بها هؤلاء الوطنيون أثناء الحرب وهم فى أوربا •

صحيح أنهم أخطأوا أحيانا فى بعض تصوراتهم وصحيح أنهم ـ كأى سياسيين آخرين ـ قد لجأوا الى الحلول الوسط فى بعض المشاكل • الا أن المصادر الألمانية تؤكد ـ وهذا من وجهة نظرنا ـ أن الوطنيين العرب لـــم يكونوا عملاء لا للألمان ولا للأتراك • وهناك أدلة تؤكد على أن محمد فريد كان يعارض صراحه فى محادثاته مع الدبلوماسيين الألمان أى سيطرة لتركيا على حكم مصر فى حال انتصارها فى الحرب • صحيح أن محمد فريد كان لأسباب سياسية يصرح بموافقته على تبعية مصر لتركيا بعد الحرب ولكنه كان فى محادثاته الخاصـــة ومعظم محادثاته العامة يؤكد عـــلى ضرورة استقلال مصر •

وكلمة أخيرة نود أن نوجهها للسادة القراء قبل انهاء هذا المقال فانا نرجو من كل من يود الكتابة عن هذا الموضوع أن يكون عادلا منصفا فى حكمه وأ لايكون متسرعا فى الحكم على هؤلاء الوطنيين ، لأن تاريخهم ما زال به كثير من المستندات ولم ينشر كله •

وقد أردنا بهذا المقـــال لفت النظر الى ضرورة البحث والتقصى عن الحقيقة قبل اصدار أى حكم ، حتى لا يغمطهم التاريخ حقهم •